النبوءة

ظاهرة تفرض نفسها اليوم على الساحة - اسمها الإسلام..

إذا أردت أن تكسب فلن تجد راية توصلك إلى غرضك بأسرع من راية الإسلام.. بنوك إسلامية.. شركات مضاربة إسلامية.. شركات توظيف أموال إسلامية.. بيوت أزياء إسلامية.

إذا أردت أن تحارب لن تجد راية تحارب تحتها مثل الراية الإسلامية.. الخومينى يرفع رايات إسلامية.. صدام حسين يرفع رايات إسلامية.. المجاهدون الأفغان يرفعون رايات إسلامية.. حزب الله يرفع رايات إسلامية..

إذا أردت أن تنزل انتخابات فلن تنفعك سوى الشعارات الإسلامية.. حتى أخونا خالد محيى الدين حينما نزل الانتخابات نزلها بصفته الحاج خالد محيى الدين، وليس بصفته الرفيق خالد محيى الدين.. لم يفكر ساعتها فى وسام لينين الذى زينت به روسيا صدره، ولكن فى وسام المعتمر والحاج إلى بيت الله الحرام.

إذا أردت أن تكتب وتطبع وتنشر فموضوعات الساعة هى

الموضوعات الإسلامية، والسيرة المحمدية، والأحاديث القدسية.

إذا أردت أن تدخل إلى التلفزيون من أوسع الأبواب، فالمسلسلات المفضلة هى المسلسلات الإسلامية والمعارك الإسلامية.

إذا أردت أن تؤلف حزبًا جديدًا.. فالنمرة الجديدة الرابحة هى الحزب الإسلامى.

حتى الإخوة الرفاق يكتبون اليوم بلغة قال الله وقال الرسول..

مات حصان الاشتراكية القديم الذى كانت تجرى عليه معظم المراهنات فى الخمسينيات والستينيات، وظهر فرس رهان جديد.. وتيار جديد قوى وعارم.

وركب التيار كل المراهنين.. وفيهم الصادق والمنافق، والمناور والتاجر، والبر والفاجر.. وأهل الإحسان وأهل الإجرام.

حتى خطف الطائرات ادعى الخاطفون أنهم جاءوا يحملون أكفانهم للخطف والقتل فى سبيل الله وفى سبيل الإسلام.

وهى ظواهر تدل فى مجموعها على شىء.

إن الإسلام هو حقيقة الساعة التى لا يمكن تجنبها.

هو الذهب الذى لا خلاف على قيمته، وإن اختلفت ذرائع الحصول عليه، واختلفت دواعى استعماله، فالكل متسابق

للحصول عليه، بالسرقة أو بالخطف، بالحق أو بالباطل، ليستعملوه بعد ذلك فى الإصلاح أو فى الإفساد.

ولكن لابد أولا من الحصول عليه لعمل أى شىء.

فهو القوة التى لا بديل عنها.

والنتيجة.. أن الإسلام نزل إلى الساحة بالفعل ليغير التاريخ وليغير النفوس، وليبدل خريطة المنطقة.. يشهد بذلك الأنصار والخصوم.. ويشهد بذلك تآمرهم لسرقة شعاراته، وتحايلهم لاستعمال رموزه وتسابقهم للتلفع بعباءته.

ولا أرى المشهد الذى يجرى الآن على مسرح العالم إلا مقدمة لمعارك سوف تشمل ما بقى من التاريخ إلى قيام الساعة، يخوضها الإسلام وأهله.

وما أحسب هذا الظهور الثانى للإسلام بهذا العنف إلا أن يكون القوة التى حشدها الله ليواجه بها الظهور الثانى لدولة إسرائيل.. هذا الظهور المُؤَيَّد بالناب الأمريكية، وبالمخالب الذرية، وبالإفساد العالمى العريض فى جميع محافل السياسة والصحافة والإعلام.

ولمثل هذا الإفساد الهائل المدجج بالقوى السياسية والعسكرية.. كان لابد أن يحشد الله الإسلام ويقذف به فى هذه الصورة التى تبدو لنا فى ظاهرها وفى بدايتها شديدة التناقض..

بل تبدو وكأنها مختلطة يمتزج فيها الزائف بالصحيح.

ولعل المرحلة القادمة هى امتحان النفوس واختبار المعادن على مفرزة التاريخ الدموية، لفرز زائف الإسلام من صحيحه.

ومن قبل هذا ومن أجل هذا رأينا الله يغمر هذه المنطقة الفقيرة من العالم بالمال والكنوز والبترول، ثم يغمر مصر بطوفان من النسل، ثم يسقط أراجوزات الاشتراكية واحدًا بعد الآخر من المنطقة، ثم يطوى بالفكر الماركسى كله فى غيابات الفشل والنسيان.

ويقف شباب العالم فى ضياع وكأنهم على باب مفترق طرق.
تعبر أغانيهم وموسيقاهم وفنونهم عن هذا الضياع والفراغ النفسى، والإفلاس الأيديولوچى، والبلبلة الأدبية.

وكأنما هناك محراث خفى يحرث الأرض ويمهدها ويعدها لشىء..

وماذا يكون هذا الشىء إلا المعركة.. والمواجهة الثانية التى تَحَدَّثَ عنها الله فى القرآن فى آيات وعد إسرائيل.

وهى معركة تبدأ فى ظنى حضارية بسقوط باقى الأراجوزات (الخومينى والأسد والقذافى) ثم التئام الجبهة العربية بعد طول تمزق.

وربما كان هذا هو الجزء القريب من القصة الذى ربما عاصرناه ورأيناه.

ولا تخشى إسرائيل شيئًا خشيتها لهذا اليوم الذى تلتئم فيه الجبهة العربية.. ولهذا سوف تحاول أن تفتعل حربًا، وتختلق صدامًا عسكريًا تعاجل فيه العرب وهم ما زالوا على تمزقهم.. وقبل أن يجتمعوا على كلمة.

وربما كان هذا هو تاريخ الأيام أو الشهور أو السنة القادمة على الأكثر.. ولكن العرب لن يستدرجوا إلى الفخ.. وسوف يفوتون عليها الفرصة.. ولن يتم لها ما تريد.. بل سوف يحدث العكس.. أن تنكشف وتفتضح، وتظهر نياتها أمام العالم أكثر وأكثر، وسوف يعرف الكل أنها أصبحت الذئب ولم تعد الحمل..

وأنها أصبحت تجسد نفس العدوان الذى كانت تنكره.. العدوان النازى.. والعنصرية النازية والوحشية النازية التى اكتوت بها واصطلت بنارها.. عادت لتجرعها للعرب بتأييد أمريكى، ومساندة أمريكية.

ولن تستطيع المظلة الأمريكية أن تستمر فى مساندة هذا العدوان السافر الذى يشجبه العالم.

وسوف يتغير اتجاه الرياح، وتتغير الموازين، وتتراجع أمريكا شيئًا ما عن تحيزها.

سوف يحدث هذا فى الوقت الذى تلتئم فيه الجبهة العربية، وتجتمع كلمتها، وتتبدل زعاماتها.. وربما لن نعيش لنرى هذا الفصل الثانى من الملحمة.. فهناك وجوه جديدة، وأسماء جديدة، وقيادات جديدة، هى فى طى الكتمان الآن، يربيها الله ويصنعها على عينه لتكون طلائع النور لعصور قادمة.. وهو يخفيها الآن ليجليها لوقتها.

وربما يرى أولادنا أو أحفادنا الفصل الختامى من الملحمة، ويشهدون هذه القيادات، ويرون هذه النجوم الطالعة من بطن الظلمة.

وربما يكون أحفادنا هم هذا الجيش الذى يسقط البطش الإسرائيلى عن مقعده، ويطرحه عن جواده الخشبى الذى اصطنعه لنفسه من نسيج ضعفنا وتمزقنا..

إن السنين القادمة يا إخوة هى ملحمة الإسلام فى ظهوره الثانى.. وما نرى الآن من أحداث هى بشائر ولوائح وعلامات.

إن ما أعطى الله من قبول لداعية مثل الشيخ الشعراوى ليس مصادفة، وما نرى من صفوف متراصة من مستمعين، صغارٍ وكبارٍ شيبٍ وشبان، تتحلق أبصارهم وأسماعهم حول الرجل وهو يلقى عليهم دقائق فى علم النحو والصرف فيتابعونه فى لهفة وشوق، وكأنه يلقى عليهم أغنية.

إن الرجل لا يستطيع وحده أن يفعل هذا.. ولكنه الفتح والقبول وشرح الصدور، وما يفعله الله مما لا نعلم ومما لا يعلم أحد، حتى الشيخ نفسه.

وساحات الخلاء التى تمتلىء فى فجر الأعياد بمئات الألوف يفترشون الأرض يجلجل الفضاء من حولهم بتهليل «الله أكبر» يسوقهم الله من بيوتهم، ويوقظهم من لذيذ منامهم.

وجبل عرفات الذى يغص بالملايين يتضاعفون سنة بعد سنة، يأتون من أقطار الأرض من كل الأجناس واللغات، يحدوهم الحادى.. لبيك اللهم لبيك..

ذلك فعل إلهى.. وليس فعلاً بشريًا.

لماذا لم يستطع أحد فقهاء الماركسية أن يجلس على دكة ويجمع حوله ما يجمع الشيخ من جمهور؟

إن الفقه الماركسى بما فيه من تحريض طبقى ساذج للفقراء والمحرومين أسهل بكثير، وأكثر جاذبية من دقائق علم النحو والصرف التى يلقيها الشيخ على مستمعيه.. فلماذا لم يظهر شعراوى ماركسى يجمع الناس؟

لأنه لا قبول.. ولا حب لهذا الكلام ولا لأصحابه.

لقد صرف الله الناس عن هذا الكلام وانتهى عصر.. وبدأ عصر جديد لله فيه مراد جديد وشأن جديد.

ولن يمتحن حامل أمانة بمثل ما سوف يمتحن به هؤلاء الحملة لأمانة «لا إلهَ إلا الله» الخائضين بها فى أوحال زمن ردىء، وسط عدوان، ومكر، وفتن، ودول عاتية مسلحة حتى الأسنان، ودهاليز سياسية ملتوية يتوه فيها اللبيب.

وما حمل مسلمو قريش بالأمس البعيد ما يحمل مسلمو اليوم من تركة مثقلة بالرعب والغموض.

كان مسلمو الأمس أحسن حظًّا، فقد كانوا يبارزون أعداءهم رجلًا لرجل، وكانت هناك بقية من تقاليد الشجاعة والفروسية والشهامة.. أما اليوم فالنذالة هى القاعدة.. والعدو لا يظهر فى العراء، وإنما يرسل بالعبوات الناسفة فى البريد.. ويطلق الصواريخ من غرف آمنة حصينة، ولا يختار أهدافًا عسكرية، بل يختار شعوبًا آمنة، ويقتل نساءً وأطفالًا وشيوخًا يسعون فى الأسواق، ويفجر قنابل ميكروبية وغازات سامة من طائرة بلا طيار، ومن ورائه ترسانات من السلاح لا تنفد، ودول كبرى تملك المليارات.

مسلم اليوم المخلص بمائة مسلم من أيام خالد بن الوليد وعقبة بن نافع، وهو يتعامل مع عداوات ألَدّ، وفتن أشد، وأسلحة أفتك، وهو لا يجد معه أحدًا، حتى حكومته يفاجأ بها ضده، وهو يخوض بحرًا من التعمية والأضاليل والغموض، ولا يرى مواقع قدميه.

وما بالك بمجاهد أفغانى ظل يحارب الترسانة الروسية فى السنوات الثلاث الأولى من الحرب ببنادق عتيقة، ومن ورائه حكومته ضده، وعياله فى خيام إيواء لا يجدون اللقمة، والسماء من فوقه تمطره بالقنابل والغازات السامة، ومن حوله عالم لا يتحرك، وصحافة لا تتكلم، وهو لا يملك شيئًا سوى القتال والصبر حتى الموت. وقد صبر وصابر وانتصر على قوى لا تغلب.

إن إسلام اليوم ينبثق من ظروف طاحنة، ويولد من تناقضات مهلكة، ولكنه سيكون أعمق وأكثر ثراء من إسلام الأمس، لأنه سيحتوى على تطور ألف عام من المجتمعات والمعارف والعلوم والفنون بين دفتيه.

إنه خطوة إلى الأمام عبر نقلة هائلة من البداوة الأولى فى قريش إلى حضارة الكومبيوتر والليزر والأقمار الصناعية.

ومثل هذه النقلة تحتاج إلى زعامات مرنة، وعقول متطورة، ومعارف موسوعية، لتقدم إلى العالم إسلامًا مستوعبًا، يضم كل الأجناس فى عباءته.

إن العقول المتحجرة الموجودة التى مازالت تدور فى فقه الحيض والنفاس وشروط الاستنجاء لا تعبر عن جوهر الإسلام ولا عن سعته، ولا عن عالميته، وإنما هى حبيسة دهاليز فقهية عتيقة، أدخلت الإسلام فى حارة سد، وقضت على حيويته ومرونته.

وعلى من يريد أن يخرج بالإسلام إلى العالم أن يخرج من هذه الدهاليز ويتحرر من هذه الزنزانة، ويحطم هذه القيود، ويجلو الصدأ الذى ران على العقول، ليتألق من جديد صفاء التوحيد، وجلال وعمق كلمة «لا إلهَ إلا الله».

وقد أظلنا هذا الزمان الموعود.

وما نرى حولنا الآن من صهير المحن وحصار الفتن وتعاقب الأزمات وتكالب الأعداء ما أخاله إلا مقدمات ومبشرات بميلاد العقول الجديدة الخلاقة التى قدر لها أن تتعامل مع المعادلة الجديدة المعقدة التى نعيشها.

إن مشاكل اليوم أشبه بالأقفال الرقمية والخزائن الإلكترونية التى لا تفتحها إلا تعاويذ العلم ودوائر الريموتكونترول..

وهذه الأشياء هى بعض ما يحتاج إليه مسلم اليوم، بالإضافة إلى إيمانه وشجاعته.

وفى القديم لم يستطع أحمس أن يهزم الهكسوس بشجاعته وحدها.. وإنما بالعربة الحربية والتجهيز الحديث.

وقد فعلها مجاهدو أفغانستان بصواريخ ستنجر.

وهذه أشياء اسمها العلم.

واسمها فى الإسلام الأسباب.

والأسباب هى يد الله فى الأرض.

والله لا يحب أن نرد يده الممدودة بالأسباب ثم نسأله المعجزات.

فعلينا أولا أن نستنفد كل الأسباب المتاحة، ونستفرغ كل الوسع الممكن قبل أن نسأله سؤال المضطرين.

هذا درس قديم جدًّا.. جاء به القرآن من ألف وأربعمائة عام.. وقد نسيناه تمامًا فى نكسة الجمود، وفى ضوضاء المشاجرات على الحجاب والنقاب واللحية وتقصير الثوب.

وجاء الوقت الذى نعى فيه الدرس ونذكره جيدًا لتتحقق النبوءة، وينفتح الباب السحرى، ويبدأ التحول الكبير.

ثم إن الإسلام احتضن المسيحية فى عباءته، فتزوج نبينا مريم القبطية، وآوى النجاشى المسلمين الفارين الأوائل، وصلى عمرو ابن العاص فى كنيسة بيت المقدس، ونزل فى عيسى قرآن يُتلى يقول إنه كلمة الله وروح من الله، بل قال أكثر من هذا، إنه ينزل آخر الزمان ليكون من علامات الساعة.

وليس مسلمًا من يثير فتنة طائفية أو يضطهد ذميًّا كتابيًّا.. ولن ينجح إلا مسلمو المودة والمحبة والوحدة ولن يفوز إلا علماء بالدين وبالعصر.

وهؤلاء هم المسلمون الموعودون بالنبوءة.